

العقيدة الإسلامية - الدرس (٨-٦٣) : الأحكام العقلية - المستنبطة من العقل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٦-١١-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

العبرة من الدرس الذي فات أن يصل الإنسان إلى المفهوم الصحيح المفضي إلى سعادته:

الدرس الماضي كان حول المطلب الأسمى لكل إنسان، وبينت أن كل إنسان على وجه الأرض يبتغي السلامة والسعادة، فمن أين يأتي الشقاء إذاً؟ من الخطأ في تصور الطريق المؤدي إلى السعادة. المؤمن كغيره يبتغي السعادة لكنه أصاب الهدف، وأصاب الطريق الصحيح إليه، فسعد في الدنيا والآخرة، وبينت أن الإنسان حينما يتلقى من العالم الخارجي هذه الصور الحسية، والبصرية، والسمعية، والشمية، والذوقية، واللمسية، وحينما يتلقى من عالمه الداخلي المشاعر كالإحساس بالخوف، والغضب، والرجاء، والحزن، والانقباض، والانشرائح، فهذه الصور الخارجية والداخلية تجتمع في مكان هو المصورة أو مركز الإدراك، ومركز الإدراك يعطي نسخة من هذه الصور إلى المخيلة، والإنسان حينما يبدع يحتاج إلى مواد أولية للإبداع، وتعطي نسخة أخرى إلى الذاكرة، ونسخة تالفة إلى مركز البحث العلمي أو مركز التفكير والمحاكمة، والإنسان حسب مقاييسه يحاكم، ويوازن، ويقبس، ويقبل، ويرفض، ويعترض، ويتحفظ، وهذه الصور الكثيرة من خلال هذا المركز تصنف إلى أربعة أصناف:

- ١- الوهم: وهو الشيء الباطل يلقيه جانباً.
- ٢- الشك: تساوت أدلة تثبيته مع أدلة نقضه، فيوضع في مكان مؤقتاً كي يبيت في أمره.
- ٣- غلبة الظن: ما يغلب على ظنك أنه صحيح.
- ٤ - اليقين.

اليقين وغلبة الظن تحتلان مركزاً هاماً في العقيدة، والعقيدة هي التي توجه الإرادة، والإرادة توجه السلوك، هذا الذي يجري محاكمة صحيحة فيأخذ ما صح، ويدع ما بطل، وتقبل هذه المفاهيم إلى مركز العقيدة، ومركز العقيدة ينقله إلى الإرادة، والإرادة إلى السلوك، وهكذا استقام الإنسان على أمر الله لأن عقيدته صحيحة، فإذا اعتقد الإنسان أن الجنة ليست بالعمل إنما بالأمل، واعتقد أن الله عز وجل لن يحاسب الناس على أعمالهم، واعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم

كما يقول بعض السذج يأخذ العصاة مهما كانت معصيتهم فيدخلهم الجنة، فإذا اعتقد الإنسان هذا المعتقد وهو خطأ، ووضعه في مركز اليقين نتج عنه سلوك منحرف، إنكم تجدون ما أخطر العقيدة، و من كانت عقيدته صحيحة صح عمله، ومن كانت عقيدته فاسدة فسد عمله، فالاعتقاد الصحيح هو الشيء الأول في الدين، ولذلك فعن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ:

((إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

(أخرجه الدارمي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين)

وقال صلى الله عليه وسلم:

" ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا "

(ورد في الأثر)

لذلك كان طلب العلم فرض عين على كل مسلم ولست مخيراً فيه، فلا ينبغي لك أن تحضر الدرس من قبيل أنك اليوم لا عمل لك وبقي من وقتك فضلٌ والوقت شتاء والسهرة في المنزل أولى من هذا الدرس، لأنك بالعلم تعرف الله عز وجل، وإذا عرفت الله سعدت به.

الأحكام العقلية:

١ - جائز الوجود:

واليوم درسنا في موضوع الأحكام العقلية أقوم بتبسيط الأمر بقدر ما أستطيع لدقه الأحكام العقلية، العقل له أحكام خاصة ومستقل بأحكامه، فكيف يحكم العقل؟ قال العلماء: " كل ما يتصور الفكر لا يخلو أن يكون واحداً من الأقسام التالية "، فأى شيء تتصوره، وأي شيء يخطر في بالك من فكرة أو قضية، فلا بد أن يكون ضمن الأقسام التالية:

القسم الأول: هو ما يقبل العقل إمكان وجوده وعدمه، ففلاَنٌ موجود وكان من الممكن أن يكون غير موجود، هذه الوجود موجودة، ويمكن أن تكون غير موجودة، وهذا الكأس كذلك، والعقل يقبل ألا يوجد، هذا القسم يسمى جائز الوجود أي يجوز أن يوجد وألا يوجد، فالإنسان جائز الوجود:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾

(سورة الإنسان الآية: ١)

جبل قاسيون جائز الوجود، ولو أن الله عز وجل وضعه في مكان آخر لما وُجد، أو أن هذا الاستواء الذي صنعه الله لم يصنعه، فهذا الجبل لو لم يوجد لكانت دمشق أرضاً منبسطة، فكل شيء تقع عليه عينك فهو من باب جائز الوجود، لأن الله خلقه فالذي خلقه كان من الممكن ألا يخلقه الأمر واضح، وهذا القسم يُسمى جائز الوجود، أو ممكن الوجود عقلاً، لأن وجوده أو عدمه ليس واجباً ولا مستحيلاً وإنما جائز الوجود، فأنت من هذا القسم، ونحن نقول دائماً: هناك نعمة

الإيجاد، وإن الله عز وجل تفضل علينا وخلقنا، ولو أن مشيئة الله لم تتعلق بخلقنا لم نُخلق ولم نكن في هذا المسجد، فمن هو فلان؟ شأنت إرادة الله عز وجل أن يكون، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كان الله ولم يكن معه شيء، والذي وجد بعد ذلك وجد بمشيئته، فالذي وجد كان من الممكن ألا يوجد فهو جائز الوجود.

٢- مستحيل الوجود:

القسم الثاني: هو ما يوجب العقل عدمه أي يستحيل أن يوجد ولو بشكل بسيط، فمستحيل أن يكون هذا الحرم منيراً بهذا الضوء ومعتماً في الوقت نفسه، فإذا قلت: هناك نور فليس هناك ظلمة، وإذا قلت هناك ظلمة فليس هناك نور، لأن النور والظلام نقيضان لا يجتمعان في مكان واحد، وفي زمان واحد، وفي جهة واحدة، وفي حالة واحدة، فإن اجتماعهما مستحيل، وإن وجود أحدهما ينقض وجود الآخر.

وفلان عالم جاهل هذا مستحيل، فالعقل يرفض هذا الزعم، والعالم لا يكون جاهلاً والجاهل لا يكون عالماً، أما عالم بعلم وجاهل بعلم فهذا بحث آخر، أي علم من جهة واحدة وبوقت واحد وفي مكان واحد فالشيء لا يقبل نقيضه، والعلماء فرقوا بين الشئيين المتعاكسين والشئيين المتناقضين، الشئيان المتناقضان أحدهما ينقض وجود الآخر، والشئيان المتعاكسان كالأبيض والأسود، فهل من الممكن أن الأبيض والأسود لوانان متعاكسان يجتمعان؟ فالمتعاكسان يجتمعان لكن المتناقضين لا يجتمعان، أحدهما ينقض وجود الآخر، وإلى الآن فالأمر واضح، هذا القسم يسمى مستحيل الوجود عقلاً.

فلان قال: إني كنت في حلب، والتقيت بصديقك فلان، فنقول له: مستحيل، لأنه كان عندي في تلك الساعة، فهل من الممكن أن يكون الإنسان في ليلة واحدة، وفي ساعة واحدة في دمشق وحلب؟ فالعقل ضابط يضبط الأمور، وهذا مستحيل عقلاً.

٣- واجب الوجود:

القسم الثالث: ما يوجب العقل وجوده ولا يجيز إمكان انعدامه في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، وهذا القسم يسمى واجب الوجود عقلاً، فالقضية مُبسّطة عقلاً: جائز الوجود، مستحيل الوجود، واجب الوجود، وهذه المعلومات نظرية وإليكم الأمثلة.

ذكر الأمثلة على حكم العقل الجائز للوجود:

١- جائز الوجود: نحن البشر موجودون على سطح الأرض بشكل واقعي، ولكن العقل يرى أنه كان من الممكن ألا نكون موجودين، فوجودنا إذاً أمر ممكن عقلاً، ومعنى ممكن أي: يجوز أن

نوجد، ويجوز ألا نوجد، العقل يقبل وجودنا وعدم وجودنا، وسيدنا علي رضي الله عنه قال عن الله عز وجل:

((علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؟))

(قول مأثور)

هذا جائز الوجود، فلو كان لك دخل محدود ففرارك من بيتك إلى المسجد، ولو أعطاك شخصاً مبلغاً ضخماً كثيراً فلا تعرف أين تصبح؟ ربما في الملاهي لا تعرف " وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟"، لذلك قال الإمام الغزالي: ((ليس بالإمكان أبدع مما كان)) بل إن تفسير هذا القول ليس بالإمكان أبدع مما أعطاني " إن هذا الذي أعطاك هو الله أبدع ما يكون، لأنه علم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ " هذه نعمة الإيجاد، النار محرقة هكذا صممها الله عز وجل ولو صممها غير محرقة لكانت كذلك وهذا حكم جائز الوجود، والله عز وجل هو الخالق وهو الذي أعطاه هذه الصفة، فلو شاء في لحظة ما أن يسلبها هذه الصفة لكان ذلك:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

(سورة الأنبياء الآية: ٦٩)

هل القرآن فيه خرافات؟ ليس فيه خرافات، لو كنت مفكراً لعلمت أن الذي أعطى النار القدرة على الإحراق هو الله عز وجل، والذي أعطى يسلب، فكما أن من الممكن أن تكون النار محرقة، فمن الممكن أيضاً أن تكون غير محرقة، فصفة الحرق في النار من نوع جائز الوجود وليس من نوع واجب الوجود.

الأحياء الذين نشاهدهم إذا ماتوا لا يعودون إلى الحياة، ففي كل حياتنا ما سمعنا أن إنساناً بعدما مات ودفنوه سمعوا صوتاً في القبر، وفتحوه فوجدوه حياً، فأرجعوه إلى بيته، فهذا لم يحصل بعدما مات، فهل يرجع؟ هذا نوع جائز الوجود، فالذي وهبه الحياة سلبه الحياة، والذي سلبه الحياة من الممكن أن يهبه الحياة مرة ثانية، من هنا كانت معجزة سيدنا عيسى في إحياء الموتى، فنظرة المؤمن لهذه الأمور يراها سهلة، لأن ذلك على الله يسير، فإن يعد الميت حياً فهذا شيء جائز الوجود، وهذه القضية تطرح على الشكل التالي: الذي وهبه الحياة سلبه إياها، والذي سلبه إياها وهبه إياها، اجتاز الإنسان المسافات البعيدة في أقطار الأرض والسماء بطرفة عين وهو أمر ممكن عقلاً، بحسب معطيات الأرض يجب أن يكون هناك واسطة نقل كسيارة أو طائرة، والإنسان ركب مركبة سرعتها ٤٠٠٠٠ كم/سا وذهب بها إلى القمر، والطائرات الراقية جداً سرعتها ١٣٠٠ كم/سا تقريباً، أما هذه المركبة التي ركبها الإنسان فسرعتها ٤٠٠٠٠ كم/سا لو أن لها قدرة أن تنتقل الإنسان إلى القمر في ثانية لكان هذا ممكناً عقلاً، حينما أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس بلمح البصر هذا الشيء كان هذا ممكناً عقلاً بشرط وجود قوة تنقله بهذه السرعة، فكيف كان أجدادنا يستحيل عليهم ذلك؟ أن ينتقل الإنسان من دمشق إلى المدينة المنورة أو إلى جدة في ساعتين فهذه قبل ألف سنة مستحيلة، فلما توافرت للإنسان طائرة

تسير بسرعة عالية جداً صار الأمر مقبولاً، العلم تقدم إذًا، فلمّا نقل الله عز وجل بقدرته هذا النبي الكريم من مكة إلى بيت المقدس بلمح البصر، كان هذا شيئاً جائزاً عقلاً أي جائز الوجود، ما دام هناك قدرة توفّر له هذا النقل السريع.

وجبل بكامله لو زحزح عن مكانه وارتفع يبدو لكم مستحيلًا، فهذا ليس مستحيلًا بل هو جائز، لأن الأرض في قبضة الله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(سورة فاطر الآية: ٤١)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

الذي يحمل الأرض ومن عليها قادر أن يحمل جبلاً في السماء، حتى إنك لو قلت جبل قاسيون هل يقصد أن يزحزح عن مكانه، ويرتفع إلى قبة السماء هذا ممكن عقلاً؟ لأن الذي يحمل الأرض هو الله عز وجل وهو على كل شيء قدير.

انقلاب الجماد إلى حيوان، ممكن عقلاً، هذه المادة تقودنا إلى موضوع الكيمياء، لأن المواد كلها مركبة من العناصر، والعناصر في الكيمياء عددها مئة وستة: هيدروجين، أوكسجين، النحاس، القصدير، اليورانيوم... الخ، وجزئيات العنصر تتألف من ذرات والذرة عبارة عن نواة حولها كهارب، وأول مدار في كهرب واحد والثاني ٢ وهذا ٨ مدارات على ما أذكر، فالفرق بين عنصر غازي وعنصر صلب كهروب واحد، فإن أراد ربنا عز وجل أعطى البحر أمراً أن يكون جماداً، فربنا عز وجل أجرى تعديلاً بسيطاً، وأضاف كهروباً حول النواة لانقلب البحر جماداً وليس على الله بكثير، كما قال لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفًا مَّا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

(سورة طه الآية: ٦٩)

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾

(سورة الأعراف الآية: ١٠٧)

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾

(سورة طه الآية: ٢٠-٢١)

والأمر على الله عز وجل سهل جداً إنه تعديل يسير كن فيكون، فإن تكن العصا أفعى والأفعى عصاً، وأن ينقلب البحر طريقاً ييسراً أمر ممكن جائز الوجود، لأن الله عز وجل على كل شيء قدير، فجائز الوجود يقبل العقل وجوده، ويقبل عدم وجوده كاستنباط أخير، وهكذا كل موجود سوى الله تعالى فوجوده، وصفاته، وكذلك انعدامه، وانعدام صفاته أمر ممكن عقلاً، وليس شيء منه في حكم العقل بواجب ولا مستحيل، لكن ربنا عز وجل من أجل انتظام الحياة ثبت صفات

الأشياء، وهذا التثبیت بمشيئته، وفي أية لحظة يسلب الشيء صفاته، لذلك قال علماء التوحيد: " الأشياء لا تفعل بذاتها إنما تفعل بمشيئة الله " فالدواء فعّال إذا شاء الله، وليس فعّالاً إذا لم يشأ، فالشيء الظاهري أن الإنسان يأخذ دواء فيشفى، والثاني يستعمل الدواء نفسه فلا يشفى، إذا ما القصة؟ عندما أعطى الله هذا الدواء شفاء الداء والتسكين سمح لهذه الصفات أن تفعل فعلها وهنا لم يسمح لذلك، عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصَابَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(أخرجه مسلم في الصحيح وأحمد في المسند عن جابر)

الشفاء يحتاج إلى إذن من الله، أي الدواء لا يستطيع أن يشفي إلا إذا سمح الله له أن يشفي، والصفات الفعالة في الدواء لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله سبحانه وتعالى وهذا هو التوحيد، فالإنسان بالتوحيد ترتاح نفسه، فالأشياء والأشخاص كلهم بيد الله إلى أن يشاء الله، ماذا قال سيدنا إبراهيم؟

﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِنْ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

(سورة الأنعام الآية: ٨٠)

﴿مَنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُونَ بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَأَلْفُ عَشْرٍ أَتَى عَلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ نَبَأٌ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(سورة هود الآية: ٥٥-٥٦)

هذا هو التوحيد.

ذكر الأمثلة على حكم العقل المستحيل الوجود:

الشيء الواحد من جهة واحدة، وفي مكان واحد، وفي زمان واحد، وفي صفة واحدة يستحيل في حكم العقل أن يكون موجوداً ومعدوماً في الوقت نفسه، مثلاً: عالم جاهل لا يمكن أن يكون، هذا مستحيل، يستحيل وجوده وعدم وجوده، فإذا اختلف الزمن فممكناً، موجود اليوم، غائب البارحة، وإذا اختلف المكان فممكناً وجوده في دمشق، غائب في حلب، وإذا اختلف الشخص: فلان موجود في الشام، وفلان في حلب موجود، فإذا اختلفت الجهة أو المكان أو الزمان أمكن أن يجتمع النقيضان، فلان عالم في الطب وجاهل في الدين هذا ممكن، أما في الطب شخص واحد، وبوقت واحد، وبمكان واحد عالم وجاهل فهذا مستحيل، هذا مثال على المستحيل وجوده عقلاً، والجزء أصغر من الكل لأنه جزء، والعقل لا يقبل أن يكون الجزء أكبر من الكل، رجل راتبه ١٠٠٠ ل. س صرف منه أجرة البيت ٥٠٠٠ ل. س دفعها من راتبه فهذا مستحيل وهذه أشياء بدئية ومستحيلة عقلاً، فالجزء لا يكون أكبر من الكل، الدجال له عين عمياء، أما أن تكون عمياء وبصيرة في وقت واحد فهذا شيء مستحيل، لكن قال: الأعور نصف أعمى، والأعور نصف

بصير هذا صحيح، فهذه العين إما أنها عمياء أو مبصرة، أما عمياء مبصرة فهذا مستحيل عقلاً. من القواعد الفلسفية في المستحيل أنه يستحيل عقلاً اجتماع النقيضين في شيء واحد وزمان واحد لها تطبيقات مهمة جداً، مثلاً بالقضاء إذا كان المتهم أثبت للقاضي أنه في وقت وقوع الجريمة كان خارج القطر فيعطيه براءة، إذ مستحيل عقلاً أن يكون الإنسان في دمشق وفي باريس في وقت واحد، ويستحيل عقلاً اجتماع النقيضين في شيء واحد، ويستحيل عقلاً ترجيح أحد المتساويين تساويًا تاماً على الآخر من غير مرجح، كأسان بالوزن والشكل واللون نفسه، تقول: إحداهما أحسن من الأخرى فهذا مستحيل عقلاً، وهناك شيء مستحيل وهو توقف وجود الشيء على وجود نفسه، والله لا أدخل الدار حتى آخذ منك ألف درهم ثم تقول: والله لا آخذ منك ألف درهم حتى أكون داخل الدار فهذا مستحيل، فهنا علقنا دخول الدار على أخذ الدراهم، ثم علقنا أخذ الدراهم على كوننا داخل الدار فأصبحت القضية مستحيلة عقلاً، ومنه قولهم: صحيح لا تقسم، مقسوم لا تأكل، وكل حتى تشبع، فشيء مستحيل، وأيضاً:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

والعياذ بالله هذه عقيدة الجبر، خلقه شقياً، وقدر عليه أن يرتكب كل المعاصي، فارتكبتها تنفيذاً لأمر الله، فلما ارتكبتها حاسبه عليها، وأدخله النار خالدًا مخلدًا، ومن كان يظن بالله ذلك فهو لا يعرف الله مطلقاً، ويقال لك: هذه المعصية لن تتركها إلا إذا شاء الله، والله عز وجل لم يشأ لك أن تتركها، فلماذا فعلتها؟ هذا الشيء مستحيل عقلاً، لن تقنع عن المعصية إلا إذا شاء الله، والله عز وجل لم يشأ أن تقنع عنها، ثم تحاسب على فعلها؟ فهذا مستحيل عقلاً ليس له ذنب.

ذكر الأمثلة على حكم العقل الواجب الوجود:

تحدثنا عن جائز الوجود، وعن مستحيل الوجود، وبقي علينا واجب الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى يعني وجوده واجب ووجوبه واحد، ينحصر وجوب الوجود في الخالق جل وعلا فالعقل لا يقبل هذا الكون من دون خالق، فوجوده واجب وليس مستحيلاً وليس ممكناً بل هو واجب الوجود، وأوضح مثل أنت تشاهد هذه المسجلة، لا توجد قوة في الأرض تقنعك أنها وحدها صارت مسجلة، هناك مهندسون، وخبرات طويلة، وهناك بحوث يومية، وتحسينات وإضافات حتى صارت على هذا الشكل، وكذلك السيارة لا بد لها من مصنع، وكل شيء لا بد له من خالق، وكل منظم لا بد له من منظم.

كان هناك مقال خشب قديماً، فلو جئت بقطعة حطب ووضعتها على الطاولة، كم سنة أو كم شهراً أو كم قرناً تنقلب هذه القطعة من الحطب إلى مقلمة؟ الجواب: لو بقيت مليار مليار سنة فإنه يبقى الحطب حطباً إلى أن تأتي يد وتصنع المقلمة، إذاً كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل منظم لا بد له من منظم، وكل شيء لا بد له من خالق، اقترن النظام مع الحركة فلا بد له من مسير،

مثلاً سيارة واقفة فوراً تنتقل للمعمل، تصوّر أن المعمل مساحته ١٠٠٠٠٠ دونم، قسم للحديد، وقسم للتجميع، ومكان تجريب، وخبرات، ومكان بحوث، وخط السير، وأعداد كبيرة جداً لقطع السيارة ولكل نوع مستودع وله تركيب دقيق، هذه السيارة لأبد لها من صانع، فقسم للعجلات، وقسم للأجهزة الكهربائية، وقسم للمحرك، ومكان للإدارة، ولكنك إذا شاهدت سيارة تسير في الطريق بحكمة، وتقف أمام الإشارة الحمراء، ومرّ طفلاً أمامها، وقد أطلق السائق البوق عند الانعطاف فالسرعة خفت، و وجدت حفرة حادت عنها وأنت تنظر إليها فماذا تحكم؟ أن في هذه السيارة سائقاً لأن حركتها بنظام فيلزمه صانع، والحركة والنظام يلزمهما مسير، وإن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، الأرض تسير على خط دقيق جداً لا تحيد عنه قيد أنملة، فمن الذي يمسكها أن تزول؟ إنه الله سبحانه وتعالى فهذه الأرض لو أنها خرجت عن مسارها من الذي يستطيع أن يعيدها إلى مسارها؟ الله سبحانه وتعالى، وهو القائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا غَفُورًا﴾

(سورة فاطر الآية: ٤١)

فمن يستطيع أن يمسكها من بعده؟ لا أحد، فينحصر وجوب الوجود في الخالق جل وعلا، وقد قدم الدليل الفعلي على أن وجود الخالق العظيم واجب وأنه يستحيل عدمه، لأن العقل لا يجيز بحال أن يكون العدم هو أصل الوجود، أي لا شيء من لا شيء، وكل شيء من كل شيء، إذ لو كان الأصل العدم لاستحال أن يتحول العدم إلى وجود بما فيه من ذوات، وصفات، وقوى وهذا كله له تفاصيل كثيرة جداً نأخذها في مكانها عند الحديث عن أسماء الله الحسنى وعن أول أسمائه وهو أنه موجود.

الأحكام العادية:

الفرق بين حكم العادة وحكم العقل:

الأحكام العادية: أنت من خلال حياتك اليومية ألفت أن النار تحرق، فإذا حكمت عن النار بأنها تحرق فهذا حكم عادي وليس حكماً عقلياً بل هو مستنبط من التجربة، فأحكام البشر كهذا الميت لن يعود، وهذه النار لا بد أن تحرق هذا حكم عادي، وهذه الأحكام العادية مستنبطة من التجربة، لكن الأحكام العقلية مستنبطة من بنية العقل، وفي الأمور العادية نحكم على الشيء بحسب العادة لا بحسب المنطق، فهناك أشياء مستحيلة في حكم العادة لا في حكم العقل، مستحيل أن يعود الميت حياً، لكن لو أن النبي بإذن الله لمس الميت فعاد ينطق فهذا ممكن في حكم العقل، مستحيل في حكم

العادة، وهناك واجب في حكم العادة وهو ضد المستحيل، حينما تميل هذه الكأس ينصب الماء على الطاولة هذا واجب بحكم العادة لكن ممكن ألا ينصب عقلاً، فموضوع العادة كل حياتنا اليومية أحكامها مأخوذة من العادة، فممكن وغير ممكن، وواجب، ومستحيل هذه بحكم العادة، ولكنك إذا تلوت كتاب الله وقرأت قوله تعالى:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(سورة آل عمران الآية: ٤٩)

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

(سورة الأنبياء الآية: ٦٩)

وقول سيدنا عمر:

((يا سارية، الجبل الجبل))

(قول مأثور)

هذه ممكنة عقلاً ولكنها بحكم العادة المألوفة مستحيلة؟.

الغاية من الدرس الوصول إلى هذه الأسئلة:

١- ماهو الهدف من خلق الإنسان؟

السؤال الأول: لماذا خلقني الله عز وجل؟ هذا أكبر سؤال، فعندما تذهب إلى مجلس علم ثمة تعلم لماذا أنت مخلوق؟ أناس يقولون: إن الله خلقنا للعذاب، لماذا أنت موجود؟ هل هناك إنسان يعمل عملاً تافهاً دون هدف أو غرض، أنا عندما أزيح الكأس فلي هدف، وعندما أقلب الصفحة فلي هدف، ومهما بدا العمل تافهاً فلا بد من هدف كبير، وهذا الخالق العظيم هل خلقنا بلا هدف؟.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

(سورة المؤمنون الآية: ١١٥)

هذا جواب السؤال الأول.

٢- ما أثنى شيء في هذه الحياة؟

السؤال الثاني: ما أهم شيء على وجه الأرض؟ قال الله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ﴾

(سورة الليل الآية: ١-٤)

فلو فرضنا شارعاً مزدحماً في الصباح الساعة الثامنة والنصف، وجعلت حاجزاً فيه، وسألت ألف شخص: أنت إلى أين ذاهبٌ؟ فيقول: لأشتري، والآخر يقول: إلى العمل، والآخر: لشراء الخضر، والآخر: إلى الطبيب، فما هو أئمن اتجاه في الحياة، المال أم البيوت، أم السياحة، أم المورد الضخم، أم تتزوج زوجة جميلة؟ فما الهدف؟ وما أئمن اتجاه في الحياة؟.

٣- ماذا بعد الموت؟

السؤال الثالث: ماذا بعد الموت؟ فكل يوم أربعون حالة وفاة، وعشرات من النعي، فهذا الميت إلى أين يذهب؟ بعض الدول الخليجية عندها عبارة على الجواز تُثير الفزع بالنفوس وهي تأشيرة الخروج بلا عودة، وكذلك الإنسان عندما يموت يعطى تأشيرة خروج بلا عودة، فيترك البيت، والسيارة، وغرفته الخاصة، وأمواله، وأعماله فأين هو الآن؟ إنه تحت التراب.

إذا توصلت إلى معرفة هذه الأسئلة سلكت سبيل السعادة في الدنيا والآخرة:

لماذا نحن هنا على الأرض؟ وهل خلقنا عبثاً؟ لا، ولا سدى ولا لعباً، فإذا عرفت الهدف الكبير الذي خلقك الله من أجله فأنت أسعد الناس، وإذا عرفت ما هو أئمن شيء في الأرض.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

(سورة الكهف الآية: ١٠٣-١٠٤)

يحسب نفسه أنه أخذ الأرض، والآن ثمنها ثلاثة وعشرون مليوناً وضحكته كبيرة ويحسب نفسه ذكياً، لا، ليس لك إلا ما أكلت، فالجاهل يعتبر نفسه ذكياً عندما يغش أحداً أو يربح ربحاً معيناً، و مهما بلغ من الحجم فهل يعني ذلك أنه قدم غرضاً جلياً؟ فعن مطرفٍ عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهاكم النكائرُ قال يقول:

((ابنُ آدمَ مالي مالي قال وهل لك يا ابنَ آدمَ من مالِكِ إلا ما أكلت فأفئيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأَمْضيتَ))

(رواه مسلم في صحيحه عن مطرف عن أبيه)

فبعض الناس يعملون من الفجر إلى آخر الليل، يذهب وأولاده نيام، ويعود وأولاده نيام، ويقول لك: العمل عبادة يُضفي عليه طابع العبادة

" وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلاسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً "

(ورد في الأثر)

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(سورة العصر الآية: ١-٣)

ثلاثة أسئلة: لماذا أنت هنا؟ وماذا يجب أن تفعل هنا؟ وماذا بعد هنا؟ إذا تمكنت أن تعرف هذه الأسئلة سعدت في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين